رثاء أبي الحسن التهامي لابنه (تحليل أدبي)

(أدب عربي)

د/ عبد الله رمضان
قسم الأدب والنقد
كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية
شاه علم - ماليزيا
arharidy@gmail.com

***خلاصة*— يتناول هذا الموضوع تحليلا أدبيا لمقاطع من مراثي أبي الحسن التهامي لابنه الذي مات ولما يبلغ مبلغ الشباب بعد.**

الكلمات المفتاحية: رثاء، التهامي، القرن الرابع، الشام، الأبناء.

I. *المقدمة*

رثى أبو الحسن التهامي ابنه الذي مات بمراثي بديعة مبكية تتخللها الحكمة والموعظة وقد اتعبرت قصيدته من نماذج الرثاء المشهورة في رثاء الأبناء.

II. موضوع المقالة

يفجعنا التهامي معه بكلمات كأنها تقطر من قلبه، حيث يحدثنا عما به من حزن يوهي القوى إلا أنه بنى أمره على الصبر مثلما هو دأب الكرام، ثم يستهين بهذا الصبر الذي لن يجدي شيئًا مع مثله، وهو المحزون الذي يرفرف جناحه من بين الترائب والنحر، وكأنه يريد أن يغادر مكانه من شدة الفاجعة.
وهذا المحزون يقلب عينا لا تنام، وكأنها بلا أهداب ولا أشفار ترتخي لتجلب النوم، وفاض دمعها على إنسانها فصار كالغريق الذي غمرته لجج البحر.
ويضاف إلى كل هذا الاضطراب والحزن حزن آخر تجلبه الذكرى وخيال الابن الذي يسري، وكأني بالشاعر وهو يتصور هذا الخيال قادمًا عليه لاجئًا إلى حضنه، وكأني به يرى ذكر ابنه شخصًا يجري تجاهه فاتحًا ذراعيه فيقابله بذراعين مفتوحتين باسمًا فرحًا غير أنه يفجأ - وهو يقبض عليه محتضنًا إياه - أنه قبض على الوهم فيتحول الابتسام ارتعاشة تهز الشفاه، والنظرات الحانية غمضًا تتسلل الدموع من أنحائه.
ورب ظان يظن - وهو واهم في ظنه - أن تأسي الشاعر بالآخرين الذين أصيبوا بمثل مصابه سيقوي عزمه وينسيه مصيبته، إلا أن شيئا على الإطلاق لا ينسيه، فالجمر لا يطفأ بالجمر، ولا يندمل جرح بآخر مثله.
ويتمنى التهامي لو كان التأسي بالمصيبة كفافًا لا يسلي عن الحزن ولا يغري به، ثم يخلص من كل ذلك إلى أن يتركه الناس وشأنه، فلا ينصحونه بالصبر أو غيره لأنه دفن قلبه أو شطر قلبه مع ابنه؛ لأن ابنه كان فيه، والصبر في طيِّ هذا القلب؛ إذن هو الحزن المؤبد الذي لن يتلاشى إلا بالتحام الأجزاء المتفرقة، التحام جسد الشاعر الذي يدب على وجه الأرض بباقيه الذي أودعه القبر، ولا يكون ذلك إلا بانقضاء حياته.
ومن منظور إيماني يرى التهامي ابنه نعمة من الله، لكنها ذهبت قبل أن يؤدي شكرها، ويزيد من وجده أن ابنه مات قبل أن يشتد عوده ويصبح خواضًا للحروب قتالاً للأعداء منتصرًا عليهم:

أيا نِعْمَةً جَلَّتْ وَوَلَّتْ ولم أَكُنْ
نَهَضْتُ بِمَا للهِ فيها منَ الشُّكرِ

وضَاعَفْتَ وَجْدِي أَنْ قَضَيتَ ولَمْ تَقُمْ
مَقَامَ الشَّجَا المَغْرُوضِ في ثَغْرَةِ النَّغْرِ

ولم تَلقَ صَفًّا من عِدَاكَ بِمِثْلِه
كَمَا أَسْنَدَ الكُتَّابُ سَطْرًا إلى سَطْرِ

ومَا خُضْتَ جَيشًا بالدِّمَاءِ مُضَمَّخًا
يُرَى بَيْنَهُمْ مِثلَ الحُبَابِ على الخَمْرِ

ولَمْ تَخْتَصِمْ حَولَيكَ أَلْسِنَةُ القَنَا
فَتَحْكُمَ في الهَيجَاءِ بالعُرْفِ والنُّكْرِ

بِضَرْبٍ يَطِيرُ البَيضُ من حَرِّ وَقْعِه
شَعَاعًا كَمَا طَارَ الشَّرَارُ عَنِ الجَمْرِ

تَرَى ذُرَدَ المَاذِيِّ مِنْهُ مُفَكَّكًا
يَطِيحُ كَمَا طَاحَ القُلامُ عَنِ الظُّفْرِ

ولَمَّا تَقُمْ للهِ بالقِسْطِ مَوقِفًا
سَأَقْضِي ولَمَّا أَقْضِ مِنْ مِثْلِهِ نَذْرِي

ولم تَمْشِ في ظِلِّ اللواءِ كَمَا مَشَى
إلى الصَّيدِ فَهْدٌ تَحْتَ رَفْرَفَةِ الصَّقْرِ

كان الشاعر يأمل في ابنه أن يكون فارسًا ومحاربًا قويًّا يخوض غمار المعارك لا يأبه بأهوالها، وكان يتمنى كذلك أن يقوم لله بالقسط مقامًا أو "موقفًا" يتحدث عنه قائلاً: "سأقضي ولما أقض من مثله نذري". وربما يوضح هذا البيت أمورًا كثيرة تتعلق بحياة التهامي نفسه، فهو وفد من تهامة إلى العراق والشام، ثم بعد ذلك مصر، وبها توفي في أحد سجونها، وقد كانت مصر في ذلك الوقت تخضع لسيطرة الفاطميين، وربما كان هذا الموقف الذي نذره الشاعر على نفسه ويخاف أن يموت قبل قضاء النذر هو عودة الحكم البريء من الظلم والابتداع الذي أرسى الفاطميون أساسه، حيث ورد في ترجمة التهامي أنه "كان حافظًا للقرآن، ومنته نفسه طلب الخلافة، وخرج معه جماعة وآزروه على أمره، ثم غدر به آل الجراح وحملوه إلى مصر، فألقي في خزانة البنود إلى أن مات بها، وقيل بل عفي عنه وخلي سبيله"[(١)].
وفي دمية القصر للباخرزي: "وكانت له همة في معالي الأمور تسول له رئاسة الجمهور، فقصد مصر واستولى على أموالها وملك أزمة أعمالها وعمالها ثم إنه غدر به بعض أصحابه فصار ذلك سببًا للظفر به وأودع السجن"[(٢)].
وتدل هذه الروايات على أن التهامي كان يسعى لهدف ما، وهذا الهدف كان كبيرًا لا يقل عن طلب الرئاسة أو الخلافة وهو ما يفسر النذر الذي ذكره في قصيدته والذي كان يعد ابنه لمثله[(٣)].

---

(١)تاريخ مدينة دمشق - ج ٤٣ ص ٢٢١.
(٢)دمية القصر وعصرة أهل العصر - علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي – تحقيق ودراسة: محمد ألتونجي (الشركة المتحدة للتوزيع – بيروت - سنة ١٩٧١م) ج١ – ص ١٣٦.
(٣)للباحث الدكتور مخيمر صالح موسى حول طموح التهامي

ويؤكد ذلك كل تلك الصفات التي كان يتمناها في ابنه؛ فقد تمناه فارسًا قويًّا يقتحم الأهوال مثلما ورد في الأبيات السابقة، وتمناه كذلك كريمًا جوادًا:

ولم تَخْفِقِ النِّيرَانُ حَولَكَ لِلْقِرَى ... كَمَا خَفَقَتْ أطْرَافُ أَلْوِيَةٍ حُمْرِ

وتمناه أديبًا مبدعًا يقفو أبكار المعاني:

ولم تَقْفُ أَبْكَارَ المَعَانِي وعُونَهَا ... فَتَرْغَبُ فيها عَنْ عَوَانٍ وعَنْ بِكْرِ

ولم تُخْجِلِ الرَّوْضَ الأنِيقَ بِرَوْضَةٍ ... مُفَوَّفَةِ الأرجاءِ بالنَّظْمِ والنَّثْرِ

وتمناه عالي القدر هاديًا للآخرين:

فإلا تَكُنْ قَلبِي فإنَّكَ شَطْرُهُ ... قَدِدْتَ كَمَا قَدَّ الهِلالُ مِنَ البَدْرِ

ولَمَّا تُبَارِ النَّجْمَ ضَوءًا ورِفْعَةً ... وصِيتًا وأنواءً وهَديًا إذا يَسرِي

وتمناه عالما ذكيا نابها:

ولَمَّا تَقُمْ في مَشْهَدٍ بَعْدَ مَشْهَدٍ ... تُصَدِّقُ إخْبَارَ المُخَايِلِ بالخُبْرِ

وما قلتَ إلا ما ذكاؤكَ ضَامِنٌ ... لَهُ كَضَمَانَاتِ السَّحَائِبِ للقَطْرِ

كل هذه الأمنيات تدلنا على أن التهامي أَمَّل في ابنه أن يجمع كل عناصر القوة المادية والمعنوية، قوة الساعد والبنيان، واللسان والبيان، والعقل والجنان، وهي من متطلبات القيادة الناجحة.

ويُخْبِرُنا أن ابنه جاءه على كبر بعد المشيب، فكان ذلك بمثابة تعويض له عن شبابه الذي فقده فاطمأن وفرح به، غير أنه ولى كما ولى الشباب، فصار صفر اليدين؛ من ابنه وشبابه، وكأنه بذلك فقد كل شيء في الحياة، فلا فائدة إذن من الوجود بعد ذهاب شطريه؛ الابن والشباب:

ولَمَّا أَتَى بَعدَ المَشِيبِ عَدَلْتُهُ ... بِعَصرِ الشَّبَابِ الغَضِّ بُورِكَ مِنْ عَصرِ

وقلتُ شَبَابُ ابْنِي شَبَابِي وإنَّمَا ... يُنَقَّلُ مَعنى الشِطْرِ مِنِّي إلى الشِطْرِ

فولَّى كَمَا وَلَّى الشَّبابُ كلاهُمَا ... حَمِيدٌ فَقِيدٌ طَيِّبُ العَهْدِ والبِشْرِ

ولم يلبث هذا الابن معه إلا فترة قصيرة شبهها الشاعر بالعنبر الذي يظل قليلاً في اليد وتبقى رائحته بعد زواله:

وكان كَمِثْلِ العَنْبَرِ الجُونِ لَبْثُهُ ... فَبَانَ وأَبْقَى في يَدِي عَبَقَ العِطْرِ

ومن انعكاسات الفقد على ذات الشاعر أنه يرى أن السلو بعد رحيل ابنه ما هو إلا ضرب من نقض عهود الود؛ لأن السلو ـ في نظره ـ أخو الغدر، بل إنه يرى في استمرار حياته بعد ابنه انعدامًا للوفاء، ويرى أن اعترافه بهذا أبلغ من أن يعتذر عنه، ويكفيه من الحزن أنه يدعو ابنه ولا يجيبه:

نَقَضْتُ عُهُودَ الوُدِّ إنْ ذُقْتُ بَعْدَهُ ... سُلُوًّا ألا إنَّ السُّلُوَّ أَخُو الغَدْرِ

وما أنا بالوافِي وقد عِشْتُ بَعدَهُ ... ورُبَّ اغْتِرَافٍ كَانَ أَبْلَغَ مِنْ عُذْرِ

كَفَى حَزَنًا أَنِّي دَعَوتُ ولَمْ يُجِبْ ... ولم يكُ صَمْتًا عن وقارٍ ولا وَقْرِ

ولم يكُ عن بُعْدِ المَسَافَةِ صَمْتُهُ ... فما بَيْنَنَا إلا ذِرَاعَانِ في القَدْرِ

ويشير إلى الدنيا وفنائها وزيف نعيمها وغناها:

نُنَافِسُ في الدُّنيا غُرُورًا وإنَّمَا ... قَصَارَى غِنَاهَا أَنْ يَؤُولَ إلى فَقْرِ

وإنَّا لَفِي الدُّنيا كَرَكْبٍ سَفِينَةٍ ... نُظَنُّ وقوفًا والزمانُ بِنَا يجْرِي

وأَفْنَيتُ أَيَّامًا فَنِيتُ بِمَرِّهَا ... وغَايَةَ ما يَفْنَى ويُفْنِي إلى قَدْرِ

يطلق التهامي حكمته المتأثرة بالقرآن الكريم، فنحن في الدنيا مثل ركب سفينة يظن ركابها أنها ثابتة لا تتحرك لكنها في الحقيقة تسير إلى غايتها، ونحن كذلك نظن الدنيا ثابتة وهي تسير إلى مقدارها، وأعمارنا تمر ولا نشعر بها إلا عندما تعبر إلى نهايتها. وفي آخر رثاء التهامي لابنه يشكو إلى الله من أنه فقده وهو في أشد الحاجة إليه، فكأنه ـ بعد فقده له ـ يحيا في بلد قفر، وهذا القفر بالنسبة له عديدة جوانبه؛ فهو قفر الغربة، وقفر الشيب، وقفر تحقيق النذر والهدف الذي يسعى إليه والذي كان يعد ابنه له:

إلى اللهِ أشكو ما أَجِنُّ وإنَّنِي ... فَقَدْتُكَ فَقْدَ المَاءِ في البَلَدِ القَفْرِ

وقد كان فقده لهذا الابن بعد أن جاوز الأربعين من عمره ولاحت نجوم الشيب في رأسه:

على حينَ جُزْتُ الأربعينَ مُصَوَّبًا ... ولاحَتْ نُجُومُ الشَّيبِ في ظُلَمِ الشَّعْرِ

ويصل ـ في الختام ـ إلى حالة من اليأس المطلق؛ جعلته ينظر إلى ذاته وما حولها من حياة نظرة عدم اكتراث؛ لأن أهم شيء فيها بالنسبة له قد ذهب فبعد رحيل ابنه، وشبابه، وعزائه، فلا فائدة من الحياة، أو كما يقول: "فالسلام على الدهر":

إذا ما تَوَلَّى ابْنِي وَوَلَّتْ شَبِيبَتِي ... وَوَلَّى عَزَائِي فالسَّلامُ على الدَّهْرِ

وأمنيته في السيطرة التي بدت واضحة في هذه القصيدة "إننا لا نستبعد أن يكون التهامي قد أسقط ما كان تواقا إليه ولم يستطعه في حياته، سيما إذا عرف أن التهامي كان في الصف المناوئ للدولة الفاطمية وقتل على أيديهم، يقوي هذا مشهد المعركة الذي اختاره التهامي في تصوير أمانيه في ابنه، والمعروف أن صاحب الشأن في مثل هذا المشهد لا يكون إلا القوي الشجاع الجلد" (رثاء الأبناء في الشعر العربي – د. مخيمر صالح موسى – مكتبة المنار – الزرقاء – الأردن – ط١ – بدون تاريخ – ص ٣٩).